ورقة تقدير موقف بعنوان

القدس من العصيان المدني الى العصيان الوطني

أ.ناصر عليوة

أفضت انزياحات سياسة الحكومة الإسرائيلية اليمينية، بزعامة بنيامين نتنياهو، ومجموعات الأحزاب الدينية والقومية المتطرفة، الى انفتاح نوافذ جديدة في الصراع بين الشعب الفلسطيني، وسلطات الاحتلال الإسرائيلي.

هذا الانفتاح وضعنا على مشارف حقبة جديدة. لها من الخصائص والأدوات ما يمكنها من استهلال نوعي لشكل الصراع المنفتح على افاق متجددة في سياق شروطها الخاصة بكل ما تحمله اللحظة التاريخية والسياسية الراهنة والمستقبلية من متطلبات ومقتضيات، يضاف لها حصيلة تجربة الشعب الفلسطيني النضالية بسلبها وايجابها. هذه الحصيلة التي تتشكل وفق إرادة الشعب الفلسطيني، الذي خبر بتجربته الطويلة كيف يعقد ويبني منظومته النضالية وفق احتياجاته، وبما يتناسب مع مواجهة إدارات وتكتيكات سلطات الاحتلال، ونهجه العنصري.

لقد جاء اعلان أهل القدس للعصيان المدني في مواجهة سياسات حكومة اليمين الإسرائيلي ، كفعل تراكمي نضجت بعض ملامحه، وتبلورت معطياته في مجري الصراع الطويل في القدس وعلى القدس ، التي تشكل بطبيعتها وتاريخها، مركز الصراع مع المحتل، وكذلك تمسك القدس بما لها من مكانة خاصة، بسر الصراع ولغزه الأكبر، فالقدس والقدس وحدها هي من يحدد وسيحدد أبعاد وآفاق الصراع، لا كبدايات أو نهايات، ولكن كأدوات وبرامج يجترح منها الشعب الفلسطيني تجربته النضالية.

وإذا كنا نُعرف القدس كجغرافيا ومكانة دينية وروحية وشعب صابر وصامد، فإن للقدس خصوصية موضوعية تميزها عن باقي أنحاء الضفة الغربية، فهي خارج إدارة وسلطة السلطة الفلسطينية. هذه الوضعية أخرجت القدس من بين رحى سياسات السلطة وتأثيراتها ولعل أهم ما يميزها ، البقاء بعيدة عن أنياب التنسيق الأمني، وإدارة الفساد والافساد السياسي، لذلك جاء نداء القدس للعصيان المدني كنداءٍ سياسي عقب سلسلة الإجراءات التي اتخذتها حكومة نتنياهو اليمينية، غير أن أصل الدعوة للعصيان المدني نبع من نضوج الفعل النضالي التراكمي لأهل القدس ، في مواجهة سلطات الاحتلال وقراراتها المتمثلة بالقتل خارج القانون وهدم البيوت والاعتقالات العشوائية الواسعة، بالإضافة الى تشديد الإجراءات العقابية كالتهديد بالإبعاد عن القدس، وسحب بطاقات الهوية المقدسية، وتضييق حركة أهل القدس داخل القدس وخارجها.

لكن الجانب الأكثر حضوراً وفاعلية في تفعيل مواجهة أهل القدس للسياسات الاحتلالية، يتمثل في الدفاع عن المسجد الأقصى في مواجهة المحاولات المتكررة للمس بالمسجد الأقصى، الذي يشهد يومياً اعتداءات استيطانية استفزازية لا تتوقف. وكذلك تمتد عمليات التضييق والاستفزاز للكنائس المسيحية، بكل تفرعاتها. مما أسهم في توحيد فاعلية كل أهل القدس، بمختلف طبقاتهم السياسية والدينية والاجتماعية.

وإذا عدنا الى الوراء قليلاً، فإن معركة القدس الكبرى قد أُعلنت يوم تشييع جنازة الشهيدة شيرين أبو عاقلة، هذا اليوم الذي مثل لا البدايات فقط، لكنه عبر عن حقبة جديدة لها خصائص وسمات العصيان المدني، بكل أدواته التقليدية والمتجددة. وواصلت القدس دورها في الصراع مع المحتل بكل الادوات والوسائل، هذا الصراع الذي شكل النقطة الأكثر حساسية، والأكثر اثارة واهتمام من قِبل العواصم الإقليمية "القاهرة، عمان، طهران"، وكذلك مراكز صنع القرار الدولي "واشنطن، وبروكسل".

مما حوله الى نقطة ارتكاز سياسية مركزية في المنطقة، ودفع بالإدارة الأمريكية وشركائها الى استخدام الدبلوماسية المكثفة، عبر مبعوثين رفيعي المستوى من الإدارة الأمريكية " مستشار الأمن

القومي، مدير CIA، وزير الخارجية" إضافة الى حراك إقليمي متسارع شمل كل من القاهرة وعمان، في إطار مثلث العلاقة مع تل أبيب ورام الله.

من هنا أحدثت القدس وشقيقاتها من المدن والقرى الفلسطينية التحول الكبير، بحملها لواء الصراع، وأدخلت متغيراً سياسياً اقليمياً ودولياً على مجري الصراع، مما دفع الولايات المتحدة الى التدخل المباشر والكثيف من أجل السيطرة ومنع التدهور.

وقد اختطت الولايات المتحدة شعاراً سياسياً، أو ما يمكن أن نسميه نظرية الضبط والتحكم والتي أطلقت عليها اسم "سياسة خفض التصعيد"، هذا المفهوم الذي يجب التوقف أمامه لكي لا يمر بشكل عابر، او بصفته تعبير لغويا في الدبلوماسية. فنظرية خفض التصعيد سبق وأن تم استعمالها في إدارة الأزمة السورية، والأزمة الكورية الشمالية، لكنها هنا في الصراع الفلسطيني الإسرائيلي، تأخذ تعبيراً مختلفاً يتمثل في إقرار مختلف أطراف الصراع والدول الفاعلة فيه، بأحقية وجود هذا الصراع وضرورته، كديناميكيات تغيير وسيطرة، تصعيد وسكون، لتكن المحصلة الإقرار بضرورة الصراع مع ضبط مستويات ألسنة النيران المتصاعدة منه. بحيث لا يعكر صفو التحالفات والاصطفافات الأمريكية في المنطقة، التي تتجه لتوحيد صفوفها في مواجهة ايران المتحالفة مع روسيا الاتحادية في حربها ضد أوكرانيا. وليس على قاعدة مواجهة إيران في المنطقة العربية.

وعليه، فإن إعادة الاعتبار لمفهوم العصيان المدني وما يمتلكه من آليات واعدة، جاءت لتتناسب مع محددات السياسات الإقليمية والدولية، وهذا التناسب لا يقع في إطار التواطؤ أو الانسجام مع السياسات الدولية والإقليمية، بقدر ما هو ابنٌ شرعي لموازين القوى، ودرجات تطور الصراع والأدوات المتاحة، إضافة الى ما يعكسه العصيان المدني من تطور في وعي الأجيال الشابة التي أدركت الأهمية النوعية للعصيان المدني.

ان الولوج في تجربة العصيان المدني بدءاً من القدس، لتفيض على باقي الجغرافيا الوطنية الفلسطينية يعتبر متحولاً ذا قيمة نوعية وتاريخية، بات الشعب الفلسطيني أحوج ما يكون اليها؛

فالعيصان المدني يشكل في هذه الحقبة الوسيلة والأداة الأكثر ملائمة لمواجهة دولة الاحتلال، هذه الدولة التي بات أبرز سماتها أنها دولة عنصرية دينية يمينية، يغلب عليها الطابع الفاشي في سلوكها المدني والأمني.

وعليه، لا بُد هنا من ابراز الضرورات التي تمليها طبيعة الصراع مع المحتل؛ من أجل اعتماد العصيان المدني والوطني الشامل، كبرنامج وطني فلسطيني، وإذا أردنا التعمق في ضرورات العصيان المدني؛ فإننا يمكن أن نرصد الموجبات والضرورات التالية:

أولاً: يشكل العصيان المدني بتجربته الإنسانية والتاريخية، قصة نجاح لإرادة الشعوب. سواءً على الصعيد الوطني او القومي، أو لجهة النضال المطلبي والحقوقي. ولنا هنا في تجارب النجاح سواءً تلك التي شهدتها دولة جنوب أفريقيا، أو أيرلندا الشمالية، أو حركات المساواة داخل الولايات المتحدة الأمريكية " ثورة مارتن لوثر كينج" للعصيان المدني، أو تلك التي شهدتها دول أمريكا اللاتينية، ما يعزز مسار العصيان المدني كتجربة ووعي.

وهنا الشعب الفلسطيني ليس خارج سياق النضال الإنساني، فهو من قدم نماذجه المختلفة، واليوم بانتقاله الى تجربة العصيان المدني التي ستحظى بدعم واسع من شعوب العالم. وسيكون لها أثر فاعل على المجتمعات الداعمة لدولة إسرائيل العنصرية، والأهم من كل ذلك، أن تجربة العصيان المدني سوف تلقي بطلالها الإيجابية على المجتمع الإسرائيلي، وقواه السياسية والحزبية. كما ستوفر تجربة العصيان المدني جسور متينة من التواصل مع الشعب الفلسطيني في مناطق الـ 48.

ثانياً: تقع أهمية العصيان المدني لتعيد الاعتبار للمجتمع الفلسطيني، وقواه المختلفة في توسيع دائرة المشاركة والاشتباك، والتي تتجاوز النُخب التنظيمية والجماعات الفصائلية. لتنتقل الى أوسع شرائح من المجتمع الفلسطيني؛ للمشاركة الفاعلة في المواجهة، وهذا بدوره سينعكس في احداث تغيير على منظومة العلاقات بين النخب السياسية والشرائح الاجتماعية المختلفة. هذا التغيير سيفضي حتماً الى الغاء حالة البطريركية السياسية وهيمنة الفصائل الفلسطينية التي نصبت نفسها

حاكماً متحكماً لإدارة الصراع، وأشكاله التقليدية. وعليه سيكون من بشائر العصيان المدني ولادة وتشكل قوى سياسية فلسطينية جديدة، تتجاوز عجز الحالة الراهنة، نحو تشكيلات سياسية وهيئات مدنية متجددة، تنبذ السلبي منها وتتمثل إيجابية تجربتها، في إطار صيرورة آليات الاحلال والابدال الطبيعية.

ثالثاً: تمثل عملية العصيان المدني مدخلاً هاماً؛ لإبطال مفاعيل التعاقدات الأمنية بين السلطة الفلسطينية، ودولة الاحتلال، فالعصيان المدني بطبيعته المدنية الشاملة، اما أن يدخل السلطة في مواجهة مع الشعب الفلسطيني إذا عملت على ابطال وافشال نهج العصيان المدني، من خلال استجابتها لمتطلبات الاحتلال الأمنية والعسكرية، وهذا بدوره سيؤدي الى انكشافها التام، واصطفافها الى جانب دولة الاحتلال. أو ان تنحاز السلطة الى وجهة الجماهير الفلسطينية في العصيان المدني، وتفقد تالياً وظيفتها لدى الاحتلال، وفي كلتا الحالتين نحن أمام متغير كبير وهام، يتمثل في تظهير وإظهار وإعادة تعريف السلطة الفلسطينية لذاتها، فإما أن تكون سلطة منحازة لشعبها في خياره الجديد، أو أن تذهب بكليتها الى التحالف مع المحتل.

رابعاً: يشكل العصيان المدني مدخلاً هاماً، للتخلص أو الحد من توظيف الصراع الفلسطيني مع المحتل للقوى الإقليمية. هذا التوظيف والاستغلال الذي أنهك الشعب الفلسطيني وحوله الى أداة من أدوات الصراع الإقليمية، مما أفقد الشعب الفلسطيني العديد من الأصدقاء والحلفاء، وبالذات محاولة القوى الإقليمية صبغ الصراع بالطابع الديني، وعليه فالعصيان المدني يخرج الشعب الفلسطيني من قبضة القوى الإقليمية، ويجعله أكثر تحرراً في تحديد مسارات صراعه ومستقبله. دون ان يكون رهينة لهذا الطرف او ذاك.

خامساً: يشكل العصيان المدني أرضية جديدة، لإعادة بناء الرأي العام العالمي الداعم للقضية الفلسطينية، من خلال توسيع القطاعات الاجتماعية والسياسية المؤثرة في صناعة الرأي العام العالمي.

سادساً: سيكون لنجاح العصيان المدني وتطوره، كبير الأثر على احباط ما يسمى بالتطبيع بين الدول العربية ودولة الاحتلال، مما يوسع من جبهة الاسناد العربية الرسمية والشعبية للشعب الفلسطيني، ويضيق مساحات التطبيع مع دولة الاحتلال.

وختاماً، ان التطلع لدعوة أهل القدس لبدء العصيان المدني، يبشر بإعلان ولادة لمستقبل الشعب الفلسطيني، من خلال التقاط هذه الدعوة وتوفير كافة مستلزمات واحتياجات انجاحها، فتجربة القدس يجب أن تؤكد ذاتها كتجربة نجاح، وهذا يتطلب من الشعب الفلسطيني وقواه الوطنية التالي:

1. خلق توازن نسبي بين الأحمال المقدرة والممكنة لجماهير الشعب الفلسطيني في القدس، وممكناتها بما يكفل عدم الاثقال على حالة العصيان المدني، بما لا تحتمله من أوزان سياسية أو فاعليات وأدوات مواجهة.
2. استبعاد مظاهر العنف، التي يمكن أن تحرف مسار وحركة العصيان المدني عن مجريات تطوره.
3. ضرورة انتقال تجربة العصيان المدني، كصيرورة حركة أفقية، تصل الى مختلف مناطق الضفة الغربية، حيث تشكل عملية نقل تجربة العصيان المدني وأشكال النضال السلمي الأخرى في الضفة الغربية، سياقاً مزدوجاً في مواجهة سلطات الاحتلال والمستوطنين من جهة، والتصدي لآليات القمع والفساد السياسي، الذي تمارسه السلطة من جهة أخرى. وهنا يأخذ مسار العصيان المدني الطابع المثنوي المزدوج، الكفيل بحشد المزيد من الفئات والطاقات الاجتماعية في المعركة القادمة.
4. المساهمة الجليلة والفاعلة للحركة الوطنية الأسيرة في السجون الإسرائيلية، للدخول في تجربة العصيان المدني والتمرد السلمي، نظراً لما تمثله المعتقلات من أيقونة وطنية وأخلاقية.
5. بناء برنامج وطني مؤازر لحالة العصيان المدني، في القدس والضفة الغربية والسجون، يشكل ساحة خلفية سواءً كان ذلك في مناطق العام 48، من خلال بناء جبهة سلام فلسطينية إسرائيلية، تدعم وتساند وتؤازر حالة العصيان المدني، فيما يمكن لقطاع غزة أن ينتقل الى دعم حالة العصيان المدني، من خلال مجموعة أنشطة مدنية سلمية، تضغط على الاحتلال لتؤازر أولاً حالة

العصيان المدني في القدس والضفة، وتطالب ثانياً برفع الحصار وإعادة اللُحمة الوطنية بإنهاء الانقسام.

6. أما بخصوص دور فلسطينيي الشتات، يتمثل في دعم وتحشيد الرأي العام العربي والعالمي، من خلال وقفات المؤازرة والمناصرة، وحشد التظاهرات الضرورية في العواصم العربية والعالمية، دعماً واسناداً لحالة العصيان المدني.